

ولم أكن أقلُّ من صاحب البيت كلِّفًا بالانسلال إلى غرفة الكتب والنظر إليها والقراءة فيها، بل كنت كما قدمت أتجاوز حظ صاحب البيت من هذا كله فأختلس الكتب اختلاسًا وأخفيها بيني وبين ثوبي، وأخلو إليها في حيث لا أرى ساعات تقصر أو تطول، ولكنها كانت تمتلئ دائمًا باللذة والمتاع، وكنت قد لاحظت كتابًا دميم المنظر قبيح الشكل، رديء الطبع والورق، يعكف عليه هؤلاء الشبان عكوفًا متصلًا، يستبقون إليه استباقًا ويتنافسون فيه تنافسًا ويشدّ اختصامهم فيه، ثم ينتهون إلى أن يتفقوا على أن يتداولوه فيما بينهم لكل واحد منهم وقت معلوم، فدُفعت إلى أن أعرف هذا الكتاب وأتبين ما يخفيه شكله الدميم وطبعه الرديء وورقه الحقيق وجلده المبتذل البالي، من هذا السحر الذي خلب هؤلاء الشباب ودفعهم دفعًا إلى التهاك عليه والتنافس فيه. وكثيرًا ما التمست هذا الكتاب فلم أجده قريب المنال بين هذه الكتب المرصوفة المعروضة، فتبينت أن هؤلاء الشبان لا يكادون يفرغون من النظر فيه حتى يخفوه إخفاء، فلم يزدني ذلك إلا كلِّفًا به وتتبعًا له وإلحاحًا في البحث عنه، وأعلم ذات يوم أن هؤلاء الشبان مدعوون إلى الغداء، وأن الغرفة ستخلو لي ساعات من نهار، وأني سأستطيع أن أبحث عن هذا الكتاب، وقد أقسمت لأجده ولأنظر فيه ولأقضي معه أطول ما أستطيع أن أقضي معه من الوقت. وقد انصرف الشبان إلى وليمتهم، وتخففت من أثقال ما كان علي من عمل، فانسللت مسرعة رشيقة سريعة النشاط إلى الغرفة، ومضيت في البحث غير قليل، وإذا أنا أظفر بما كنت أبتغي، فياللبهجة ويااللغبطة، وياالسعادة وياالرضا! هذا الكتاب بين يدي، دميم الصورة، قبيح الشكل، حقير الورق، رديء الطبع، ولكن اسمه «ألف ليلة وليلة». وأنا أقرأ فيه وأنا أمضي في القراءة، وأنا أنسى نفسي وأنسى مكاني، ولكن ماذا أسمع وماذا أرى؟ هذا باب الغرفة يفتح في غير احتياط، وهذا رب الدار يدخل! فقد كان مثلي ينتظر أن تخلو له الغرفة ليقف من هذه الكتب موقف الإكبار، ولينظر إليها نظرة التقديس، وليمد إليها يده ملاطفًا ملاعبًا، ثم ليقرأ من أسمائها وسطورها ما يبهر به أصحابه إذا خرج إليهم آخر النهار، ولكنه يراني أنظر في الكتاب، وفي كتاب لم يتعود أن يراه! فهو يسألني ماذا أصنع، وما أنا وهذه الكتب؟ وأحاول أنا أن أخفي الكتاب الذي كنت أنظر فيه، ولكنه قد أسرع فأخذه من يدي، ثم زجرني زجرًا عنيفًا وطردني من الغرفة طردًا. على أنه لم يطل المقام في هذه الغرفة وإنما خرج منها بعد قليل ثائرًا ساخطًا، وأقبل على زوجه وفي يده هذا الكتاب فألقاه في وجهها إلقاء، واندفع في غضب لا حدَّ له وفي شتم لا ينتهي ساخطًا على زوجه المسكينة وعلى أبنائه البائسين، صابًا عليها نذرًا